

## متلازمة الجنس والموت

2010/05/02

قام الكثير من اختصاصي النفس والأنثربولوجيين بدراسة المعتقدات القديمة، ليتوصل البعض منهم إلى ضرورة تشخيص الحالة الغرائزية الجنسية عند الإنسان لفهم الأساطير التي بدورها كانت أساس الروحانيات والأديان، فاعتبر البعض أن المنطقة التناسلية شكلت الغذر الأساسي لجميع المعتقدات.

اعتبر جيما روهيمن أن العلاقة الجنسية مثلت الفكرة اللاواعية المؤسسة للروحانيات فهي المادة المركزية للروح. وحسب تفسيره لأساطير شتى، اتضح له وجود علاقة متراقبة ما بين النطاف والروح، فالعضو الذكري مهدد في حالة الانتصاب والتزاوج للانفصال عن الجسد، أي أنه مهدد بالخصي. هذا المعتقد المتسرب إلى الأفراد بشكل لا يخفي، دفع الكثير من اختصاصي علم النفس والأنثربولوجيا إلى التعمق في أساطير القبائل، فوجد روهيمن على (سبيل المثال) أن أفراد بعض القبائل كقبيلة "ماوريين" اعتبرت أن النشوة الجنسية عبارة عن ضياع للروح وخصوصاً عند قذف النطاف لدى الذكور إلى الخارج. أي أن الروح عبارة عن شكل آخر للحياة المتمثلة بالنطاف الذكري، أما الموت فهو يتمثل في العضو التناسلي الأنثوي، وهذا ما نراه في أسطورة "موي" عند الثقافة مع "هيني-تني-تي-بو" والمسمية "موت موبي" عند تزواجهما. ومن أجل درء المخاطر والاحتفاظ بالروح، فكان لدى هذه القبائل ممارسات سحرية وأقوال تحمي العضو الذكري من الموت عند التزاوج. وهنا لا بد لنا أن نقارب مفهوم الأرض مع هذه الأساطير والتي هي (أي الأرض) أنتي في لغات وثقافات عده، فتراها ترمز قبل كل شيء إلى الموت، فكما قالت: الأرض لـ"رانجي" في أسطورة أخرى "ساسترجعكم جميعاً في الموت".

إذن، تغير الأرض عن قيام الجنس في الغالب، ففيها نفق وتنلاشي. وعند البحث في الثقافات الإنسانية القديمة نجد أن السماء أو الطبقات العليا ترمز إلى الذكرية في معظمها كما هو الحال عند الأغريق، فـ"اورانوس" هو الغلاف الجوي الذي يحيط "خياماً" آلهة الأرض، كما نرى أن هذا المفهوم يتكرر أيضاً عند الصينيين في "اليانغ والين".

لنلقي نظرة على مفهوم الجنّة والنار عند "الكاربنز"، الذي يتطلب من المرء عبور جسر رمحي ما بين الأرض والسماء للوصول إلى الجنّة، حيث لا يجتازه إلا بعض من الرجال القادرين على المرور، أما البعض الآخر منهم الذين يستصعب عليهم اجتيازه، نراهم يتسلّقون منه ليتحمّلوا إلى نساء على الأرض.

أي أن النساء عند هذه القبيلة عبارة عن رجال مذنبين تم عقابهم بواسطة الخصي أي حرمانهم من عضوهم الذكري.

لا ننسى أن خوف الذكر البشري من ضياع النطاف وجهله لعملية التكاثر واستقبال الأنثى لنطافه، ساهم في تسطير أساطير عدّة حيث ربطت عملية القذف بالموت. من هنا نجد معنى لمنع عملية التزاوج بين الذكر والأنثى في حالة الحرب عند بعض القبائل لأنها تنشر بخسارة أمام العدو، فلاحظ وجود الكثير من الممارسات السحرية عند بعض قبائل الهندود الحمر لاسترجاع المنفي وذلك اعتقاداً منهم بتواجد روح الذكر في نطافه. فيما أن عملية القذف متراقبة مع تلقى الأنثى له، تم ربط العضو التناسلي الأنثوي مع مفهوم الموت، ولهذا ربما نجد في معظم الأساطير والأديان مفهوماً قهرياً للمرأة ليلاقى على عاتقها مسؤولية الشر والعقاب.

عملية الخوف الذكري من الخصي تراها في أساطير عدة، كأساطير أوزيريس- سيث والتي تروي قصة القوم الأول، والعراك ما بين الآب والأبناء من أجل النسوة حسب التفسير النفسي، والمشابهة في حد ذاتها لعملية قتل الآب البشري. وبعد محاولة فرويد في فك اللغز الطوطيقي، حيث فسر لنا علاقة الإنسان بوطشه ليتم استبدال الطوطم بالأب لترتفع مرتبته مع الأيام إلى الأعلى، طبعاً هذه الجريمة سبب في نشوء عقدة الذنب، والتي تراها في ثقافات، أساطير وأديان عده.

شكل الموت لدى الإنسان هاجساً مزمناً، فنرى أن معظم الأساطير ارتكزت على فكرة الحياة ما بعد الموت واعتبار الموت ولادة جديدة. لهذا يعتقد ان فكرة التحنط نفسها قائمة على مبدأ ايجاد حياة جديدة ما بعد الموت لاعطاء مفاتيح السعادة الأبدية لكل من آمن بها، وهذا ما نلاحظه مكرراً في بعض الأديان التي دعمت مبدأ السعادة الأبدية، وبما أن الإنسان القديم عجز عن ايجاد مفهوم توازن ما بين السعادة الأرضية والأبدية وذلك لракم المشاعر اللاواعية المتضادة فيما بينها، لم يستطع خلق سعادتين في آن واحد. وبما أن فترة الحياة تعتبر فترة قصيرة، قام الإنسان بتعويضها في مكان آخر أي تعويض السعادة الأرضية بسعادة واهية أبدية خارجة عن حدود الأرض والعقل.

كما نجد عند تعمقنا أكثر في بعض القوانين القديمة الاجتماعية ان اعتقاد الإنسان الطوطمي في وجود كائنات حية وراء بعض الظواهر الطبيعية ما هو إلا محاولة منه للحفاظ على الحياة، فتبادل الأرواح بين الإنسان ووطشه، على حسب تفسير فريديزر، وانتقال الطاقة الحياتية بين الكائنات الحية كانت سبباً من أسباب خلق الإنسان للأبدية.

نعود إلى أساس العراق بين الغسان وقرينه المرتكز على تلبية الحاجات الغرائزية (من بينها حاجة الالكتفاء الجنسي)، أما عدم الالكتفاء الحاجات الجنسية تسبب حالة من الغفف تجاه الآخر، و من هنا تحدث نظرية فرويد عن تسامي الدوافع الجنسية إلى قيم وأهداف اجتماعية تصب في مصلحة الثقافة الجماعية، إلا انه علينا أن لا ننسى ان العملية الجنسية كانت عملاً أساسياً في خلق الإنسان لأساطيره وأديانه ..